مجلة اللغة العربية و آدابها
السنة الاولى_العدد الثاني_صيف و خريف١٤٢٦/٥/٢٠٠٥م
ص ١٤٧-١٣٥

دورالشعر الكلاسيكي والحرّ في الحياة الإجتماعية و السياسية العربية*

الدكتور نادر نظام الطهراني**

خلاصة:

لاشک في أن الشعر المعاصر كلاسيكيا كان أم حرّاً ساهم في التعبير عما تتعرض له الأمة العربية من أحداث اجتماعية و سياسية،و كان الصرخة التي حركت ضمائر الشعوب و أثارت حميتها ،و دفعتها للوقوف في وجه كل من يحاول النيل من الأمة و تاريخها و حياتها.

و لم يكن لنوع الشعر و شكله فرق في التأثير هذا،فشكل الشعر لايمكن أن يكون موثراً بقدر تأثير الشاعر نفسه ،و حينما أقول: الشاعر ، أعني الشاعر الحق الذي يملک الموهبة، و يعيش في خلجات آلام أمته ، و صراعاتها الاجتماعية و السياسيّة.

و العالم العربي الذي يواجه الكثير من الأزمات و التحديات و التعدي يحتاج إلى الأصوات النابعة من صميم وجوده ، لتصک الأسماع ،و تهز المشاعر ،و تبعث الحمية في النفوس ، و هذا يمكن أن يتم بأي أسلوب و فن طالما يتفجر من إحساسات صادقة.

الكلمات الرئيسة: الشعر، المجتمع ،السياسية،الابداع ، التقليد

---

* تاريخ الوصول:١٥ /٨٤/٤؛تاريخ القبول:١٨ /٨٤/٥

** استاذ اللغة العربية و آدابها بجامعة العلامة الطباطبائي

مقدمة:

جرت العادة حين الحديث عن الشعر المعاصر أن يحدَّد هذا التحديث بتاريخ أو حادثة معينة لها تأثير في حياة الأمم الثقافية و العلمية.

و بالرغم من أن الأدب يتطوّر تطوراً طبيعياً مستمراً ،ولايمكن لحادثة طارئة أن تغيره تغييراً جذرياً ،إلا أنها قد تؤثر في التسريع بتطوره،و لا يكون التغيير الجذري إلا بما يجدّ من عوامل تربط ماضيه بحاضره، و تعمل على ترسيخ التجديد فيه على المدى الطويل و بجهود جماعية متعاضدة متعاونة،و لكننا و تسهيلا للبحث نأخذ بما تعارف عليه مؤرخو الأدب في هذا الشأن.

يُرجع مؤرخو الأدب في البلاد العربية بدء تاريخ النهضة الشعرية الحديثة إلى عام ١٧٩٨م و هي السنة التي غزا فيها نابليون بونابرت مصر،وما صحب هذه الغزوة من روافد أدبية تمثلت في الطباعة و الصحافة و المجاميع العلمية و البعثات (احمد حسن الزيات،١٩٩١، ص٤١٦)وغيرها. ذلک أن المشرق العربي قبل هذه الفترة لم يشهد نشاطاً أدبياً جماعياً، و لم يتوفر له شعراء مجلّون يتصفون بالتجديد والابداع ، و انما عاشوا عالة على الذين سبقوهم في الصور و المعاني و الشكل.

دور الشعر:

فنقولا الترک (١٧٧٦-١٨٥١م)وبطرس كرامة (١٧٧٦-١٨٥١م)و علي درويش(-١٨٥٣م)(بطرس البستاني، ص١٥٣) و أمثالُهم في البلاد العربية مالوا إلى المدح و وصف الطلول والإبل، و ذكر أماكن الأعراب في البادية،و لم يخرجوا من دائرة الشعر القديم في صناعته و تصنعه أو استرساله و بساطته ، و ولائه للفرد و فرديته.

و لنا أن نتساءل بعد ذلک،هل أتى الشعراء الذين ظهروا بعد غزوة نـابليون لمصر بجديد،وهل أدخلوا تجديداً في الشعر،و هل طرقوا مواضيع جديدة أو نفـذوا إلى المجتمع و عبروا عن غليانه و تطلعاته،و ساهموا في صـراعاته الـسياسية؟.إن الرجوع إلى أشعار أمثال محمـود سـامي البـارودي (١٨٣٩-١٩٠٤م)و اسماعيـل صبري(١٨٥٤-١٩٤٣م)،و أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢م) و حافظ ابراهيم(١٨٧٠-١٩٣٢)و جميل صدقي الزهاوي(١٨٦٨-١٩٣٦م)و غيرهم كالرصافي و عمر أبي ريشة يكشف لنا عن أن الشعر العربيّ في هذه الفترة أيضاً، لم يتجاوز في سـبكه و أسـلوبه الـشعر القديم،و ان اختلف الشعراء في طرقهم للمسائل الاجتماعية و السياسة التي تـدور حولهم .فباستثناء شوقي نجد الزهاوي عنيفاً في مهاجمة الفساد،و ثورته على تقاليد و الطقوس الدينية الدخيلة على الإسلام و بخاصة في ملحمته«ثورة في الجحيم(احمـد ابوسعيد، ١٩٩٤م،ص٥٤)يتناول آلام المجتمع و يدعو لإصلاحه،و هي الدعوة التي كانت تتناولها أقلام الكتاب و المصلحين آنذاک، إلا أن موقفه من الأحداث الوطنيـة و السياسية و الاحتلال الذي يجثم على صدر البلاد كان ضعيفاً ليّنا، يتصف بالمداراة و الاحتياط، فنراه يُنشد بعد قتل الانكليز لعدد من المصريين إثر حادثة دنـشواي المشهورة:

أيها القـائمون بـالأمر فينـا ... هل نسيتم و لاءنـا و الـودادا
خفّضوا جيشكم و ناموا هنيئـاً ... و ابتغوا صيدكم و جوبوا البلادا
و إذا أغـوَزتكُم ذاتُ طـوق ... بين تلک الربا فصيدوا العبـادا
إنّما نحـن و الحمـام سـواء ... لم تغـادر اطواقُنـا الأجيـادا

(شوقي ضيف،١٩٩١م،ص٨٥)

فهو في صرخته لم يتجاوز التهكم و السخرية،و لكنه كان أكثر جرأة من سابقه محمود سامي البارودي(احمد حسن الزيات،١٩٩١م، ص٤٥)الذي يخاطب مؤججي الثورة العرابية بعد فشلهم منشداً:

نصحت قومي،قلتُ:الحرب مفجعة و ربما تاح أمر غيرُ مظنون
فخالفوني و شبّوها مكابرة و كان أولى بقومي لو أطاعوني

ألا أن هذه الثورة كانت في البلاد الأخرى أشد عنفاً و جرأة و قوة و صلابة،تبدو واضحة في شعر الشابي(ابوالقاسم محمدكرد، ١٩٥٤م، ص١٣) و محمد مهدي الجواهري(احمد ابوسعيد،١٩٩٤م،ص١١١)حيث يقول في قصيدة ألقاها بمناسبة انتخاب الدكتور هاشم الوتري عميداً لكليّة الطب:

و تقول كيف يظل نجمٌ ساطع ملئ العيون عن المحافل غائبا
أُنبئک عن شر الطّغام مفاجرا و مفاخراً،و مساعيا ومكاسبا
الشاربين دم الشباب لأنه لو نال من دمهم لكا الشاربا
والحاقدين على البلاد لأنها حقرهم حقر السليب السالبا
أنا ذا أمامک ماثلاً متجبراً أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا

ولعل طبيعة الشعب المصري الذي يعالج الأمور برفق و صبر قبل أن ينفجر،خلافاً للشعب العراقي العنيف، هو الذي يفسر لنا هذه الظاهرة، كما يفسر لنا سبب ميل عدد كبير من الشعراء المصريين الذين ظهروا بعد هذه الفترة إلى الرومانسية، و من يقرأ شعر ابراهيم ناجي و عبد العزيز عتيق و صالح جودت و حسن كامل الصيرفي و مختار وكيل يلمس ميلهم إلى فلسفة الشوق و الحرمان و العذاب و الأرق،و يجد في معانيهم شعراً حقيقياً و خبرة بالحياة و مركباتها

العاطفية،فشعرهم يحمل جانبا نفسياً و انسانياً يحلل الذات البشرية تحليلاً موضوعياً عميقاً.

و هذا الشعر الرومانسي و الذاتي يختلف عما نهجته المدرسة الأوروبية و يختلف عما وصلت إليه من *ميوعة* و اسفاف،ذلک أن الثقافة الشعرية العربية، و الآلام الاجتماعية الشديدة قد امتزجت امتزاجا عميقاً بالأسلوب الجديد فمنعته عطاء جديداً،فالشاعر الحديث في البلاد العربية لم يصل في شعره إلى الميوعة التي وصل إليها أنصار الرومانسية في الشعرالأوروبي،و لم يصل إلى درجة اجترار المعاني و الألفاظ،بل إتنا ناه قد اتخذ من المرأة سبيلاً لبثّ آلامه الاجتماعية و السياسية،ذلک أن ما يعتصر مجتمعه من متاعب لم يترک له مجالاً للوصول إلى ذلک الحدب من الاسفاف فكان كلما انحدرت به ثقافته ارتفعت به أفكاره و آراؤه، و هكذا يمكن القول:إن المدارس الأوروبية الرومانسية و أبوللو و حتى نهج «اليوت» و غيره أثرت في الشعر العربي فساعدته على الانطلاق ولكنها اصطدمت بالأصالة اللغوية و الفكرية،فإذا بهذا الشعر ينبع ذاتيا عميقاً يحتضن كل تراثه الأدبيّ و الشعري.

ولا شک في أن الأحداث التي تعرض لها العالم العربي، و الثورات و الانقلابات التي اجتاحته كانت أسرع مما كان يتوقعه، ذلک أن الضغط الاجتماعي الذي عانته الشعوب العربية خلال الحكم العثماني،و الظلم الذي تحملته أثناء الاستعمار الانكليزي و الفرنسي و أخيراً المد الصهيوني الذي اجتاح فلسطين و هدد الوجود الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي و الفكري في البلاد العربية بالزوال،كل ذلک أدّى إلى الانفجار تلو الانفجار،لافي الأوضاع السياسية فقط، و

انما في جميع الميادين،فأي ضغط يتعرض له شعب ما لابدّ من أن تبرز نتائجه في تفجير جميع طاقاته،و البلاد العربية التي تعرضت للانقلابات العسكرية المتتابعة كانت من الناحية السياسية أقل استعداداً منها في النواحي الفكرية و العقلية،ذلک أن الثورة العقلية و الفكرية كانت قد بدأت منذ حملة نابليون،والمد الثقافي الذي رافقها،أما الثورة السياسية فكانت متأخرة تصطدم بالتفوق التكنلوجي و التجربة السياسية في الغرب، إلا أن المد الصهيوني الذي استهدف استئصال شعب من هذه الشعوب العربية كان المحرک الأقوي،و الدافع الأشد للثورة السياسية،و بالتالي تفجير جميع الطاقات الكامنة لدي هذه الشعوب.

و قد حاول الشعراء أن يعبروا عن ثورتهم و آلامهم من الأوضاع المنهارة،و مسايرتهم للانفجارات السياسية المتتابعة، بالقوالب الشعرية القديمة المعروفة، إلا أن هذه القوالب كانت ضيقة في نظرهم،لاتتسع لما تحمل صدورهم من نفثات وجدانية عنيفة فحطموها معتمدين في نظمهم على التفعيلة،و النظم فيما يسمونه الشعر الحر(احمد ابوسعيد، ١٩٢٨ م،ص١١١)في العراق،و الحر أو المرسل في سورية،و شعر الشكل الجديد ثم المنطلق(محمد النويهي ،ص٤٥٤)في مصر.

و كما كانت الثورة على الاستعمار في العراق عنيفة أقوى منها في البلاد العربية الأخرى،كانت الثورة على الشعر التقليدي العروضي أكثر جذرية،فكان أول من تبني النظم بهذه الطريقة و الدفاع عنها_حسب ادعائها_الشاعرة نازک الملائكة التي ترى«أن الشعر الحر يحرّر الشاعر من عبودية الشطرين،و الوقوف بالبيت حيث يشاء»(نازک الملائكة،١٩٤٩،ص٥٥)و هي دعوة رددها رئيف الخوري اللبناني،فدعا في كتابه«الدراسة الأدبية»إلى التخلص من عيب الوتيرة الواحدة و نظام البيت،و

أوصى الشاعر بأن يقف عند الحدّ الذي يختاره من أجزاء البحر،و كذلک مصطفى عبد اللطيف السحرتي(مصطفى عبد اللطيف، السحرتي،١٩٤٨،ص٤٠)الذي تحدث عن الموسيقي الشعرية،و ضرورة تطعيم الشعر بالأنغام المنوعة،التفعيلات الجديدة،و هجر القافية الواحدة.

كما نهج شعراء آخرون هذا النهج من النظم إلا أنهم عرفوه تعريفاً يتغلغل في مضمونه لاشكله فقط،فالشاعر بدر شاكر السياب يرى«أن الشعر الحر أكثر من اختلاف عدد التفعيلات المتشابهة بين بيت و آخر،و أنه تحقيق لوحدة القصيدة و نموها العضوي،و بنائها بناءاً ذرويا مستمداً من تقنية القصة و فن الدراما الحديثة،جاء ليسحق الشعر الخطابي و الجمود الكلاسيكي،و يعبر بالصور تعبيراً جديداً مستوحي من لغة الحديث،و واقع الحياة اليومية».(مجلة الآداب،١٩٥٨،ص١٣)

و هو ما استدركته الشاعرة نازک الملائكة فيما بعد، و اعادت سببه إلى«جذور منها ما هو اجتماعي و منها ما هو نفساني».(مجلة الآداب،١٩٥٨،ص٢٨)

و هنا لابد من الإشاره إلى الصراع الحنيف الذي حدث في مصر و غيرها أيضاً بين أتباع الشعر الكلاسيكي و أتباع الشعر الحر، و المقالات العديدة التي نشرت في المجلات الأدبية كالرسالة و الأديب حول هذا الموضوع، و دور هذا الشعر في التعبير عن الآلام الاجتماعية و السياسية.

و نظرة منا الى شعر شعراء هذه الفترة،نجد أن الشاعر يحاول النفوذ إلى الواقع،أي واقع المجتمع،و نبش ما فيه من فساد،و احتضانه و نقده،و الدعوة لتحطيمه،مستوحيا من المثل الانسانية التي يؤمن بها الانسان بعد أن كان يحاول

الهرب من الواقع و الشعور بالألم و الضياع،فهذه نازک الملائكة التي كانت تقول في قصيدتها(الأفعوان)عام١٩٤٧م:

أين أمشي،ملكت الدروب

و سئمت المروج

و العدوَّ الخفي اللجوج

الذي يقتفي خطواتي

فأين الهروب

تقول في قصيدتها(شهيد)عام١٩٥٣م:

حَسِبوا الإعصارَ يُلوي

أن تحامَوه بستر أو جدار

و رأوا أن يطفئوا ضوء النهار

غير أن المجد أقوي

و هذا صفاء الحيدري(١٩٢١)يقول في قصيدته(عالم فارغ):

و مررتِ لي

ما كان قبلُ بعالمي غيرَ انتظار

و غير شي ءكالدُّوار

و حقيقةً ضاعت بضوضاء النهار

فيؤكّد عبد الوهاب البياتي(١٩٢٦)ثورته هذه قائلاً:

كنا نحدق في الفراغ ولاننام

إلاعلى أصوات عالمنا المقوض و العبيد

يتسكعون،و من جديد

يستقبلون_هناک_طاغية جديد

و خيولنا الخشبية العرجاء_كنا في الجدار_

بالفهم نرسمها،و نرسم حولها حقلاً و دار

و هي ظاهرة تبدو واضحة في شعر الشعراء السوريين أمثال :سليمان العيسي و محمد الماغوط الذي يقول في قصيدته(حزن في ضوءالقمر)(محمد الماغوط،١٩٩٨،ص١٤)

أيها الربيع المقبل من عينيها

أيها الكناريّ المسافر في ضوءالقمر

خذني إليک

قصيدة غرام أو طعنةَ خنجر

دمشقُ ياعربة السبايا الوردية

أسمع و جيب لحمک العاري

عِشرون عاماً و نحن نطرق أبواب الصَّلوة

و رياح البرارُي الموحشة

تنقل نُواحنا

إلى الأزفة و باعة الخبز و الجواسيس

ففي شعر الماغوط يبدو الوطن في شكل امرأة،و تبدو الحياة في صورة رزايا تلف وجود الشاعر، فيصرُخ و يتألم و يطالب بالثورة(الماغوط،١٩٩٨،ص٢٩٥)ثورةٍ عارمةٍ لاتبقي و لاتذر،الستمع إليه يقول:

أيها العلماء و الفنيون

أُعطوني بطاقة سفر إلى السماء
فأنا موفد من قبل بلادي الحزينة
كل ما أريده هو الوصول
بأقصي سرعة إلى السماء
لأضع السوط في قبضة الله
لعله يحرضنا على الثورة.

فالشعر هنا أصبح ثورة لايحدها وزن و لاقافية و لا تفعلية أيضاً،بل ايمان عميق بالوجود،ايمان بالمجتمع والصلاحه.ايمان بانقلاب جذريّ.

وهنا لابد من الرجوع قليلاً إلى شعراء المهجر، لننظر إلى شعرهم الذي امتزجت روحه الشرقية بواقع الغرب،و نتساءل:هل استطاع أن يبلغ هذا الحد من العمق و الانفعال،و هل استطاع أن يتغلغل إلى صميم الوجود الأنساني،و أن يحبر من مآسي أمته و وطنه الذي خلفه و لايزال يحن إليه؟.إن مثل هذا البحث يحتاج إلى صفحات ،و لابد لنا من وقفة أخرى معه،و كل ما تقوله الآن:إن شعرالمهجر ظل مرحلة بدائية تجاه ما وصل إليه الشعر اليوم،و لم يتجاوز روح الفلسفة و الألم. و هو ألم ذاتي بعيد من آلام المجتمع العربي و الجرح العربي،كما نراه في شعر شعراء المقاومة،و بالرجوع إلى شعر أمثال محمود درويش و يوسف الخطيب و فدوي طوقان و امثالهم من الفلسطينيين تتجسد لنا هذه الحقيقة واضحة، ففي كلماتهم نشعر بالصرخة الانسانية المنبعثة من صميم وجودهم و واقعهم ،و بالألم النابع من الوجدان يطالب بتحطيم كل شيء بعد أن حطم تيار الأحداث آمالهم و تطلعاتهم ،فهم يهاولون صنع واقع و آمال جديدة.

و لنا أن نتساءل بعد ذلک،إلى أين سينتهي الشعر و قد استنفذ تطوره الموضوعي و الفني و هل سيظل منطلقاً بلا حدود،و يكون مصيره مصير الشعر الأندلسي(جودت الركابي،١٩٥٧،ص٧٨)الذي سبقه إلى هذه المرحلة في الشكل خاصة، أم أنه سيخلق له قيوداً جديدة تلائمه وتحده و تمنعه من الاندثار؟

لاشک في أن الشعر تعبير عن خلجات الشاعر،و الشاعر الحقيقي هو الذي يختزن في نفسه كل الأحاسيس و المشاعر و الصور لتتفجر في الوقت المناسب في أي قالب كان،فهو لايفكر بالشكل قبل لامضمون،و لايختار البحر و الوزن قبل المعني،و لايطلق المعاني الا بعد أن تختمر في نفسه،و تلبس الصورة التي تناسبها،و إذا كان الشعر العربي الحديث قد اتجه اتجاهاً جديداً في خيالاته و ابداعاته الفكرية و الفنية فإن الخطر كل الخطر في تحرره الكامل في الشكل،ذلک أن هذا التحرر سيصل به إلى متاهات الضياع و الاندثار،و الاعتدال في كل جديد خير ضامن لبقائه.

و الشعراء العرب عاشوا هذه التجارب منذ القديم و عانوا ما عانوه من قيود الماضين قبلهم،و حاولوا التفلت من قوقعاتهم،و هم في هذا لم يكتبوا المقالات،و لم يدبجوا الأحاديث الطويلة،بل عاشوا التجربة بشعرهم و وجودهم،فخلقوا الحداثة و تجاوزوا التراث بعفوية تامة تنبع من متطلبات حياتهم و مجتمعهم.

فهل تحدث عمر بن أبي ربيعة عن طريقة جديدة سيطرقها في الغزل أو أنه ابدع ما يريده شعراً جديداً مبتكراً،و هل كتب بشار مقالة عن الشعر المولد،أو انه اتحفنا بأشعار رقيقة خفيفة الأوزان تنبض بالواقعية و الحياة، و هل فعل ما فعل أبو تمام و ابن الرومي و ابن الفارض و شعراء الموشحات و الحقيقية.

إن الشاعر الذي يمتزج بواقعه،و يغوص في نبضات أحداث مجتمعه،و يتفاعل تفاعلاً تاماً مع هذه الأحداث،فينسي نفسه في عواصفها و زبرجها،و ينسي الأطر الصناعية التي يحددها له النقاد و مؤرخو الآداب،يمكن أن يأتي بجديد ينبع من عفويته الانسانية،و قد يكون هذا الجديد في إطار الأبحر الخليلية أو لايكون،ذلك أن هذه العفوية وهذا الامتزاج هما اللذان يخلقان الحداثة و الجدة و يؤديان إلى الإبداع،و أنا هنا أتحدث عن الشاعر الحق الذي وُهب القدرة على أن يكون شاعراً.

نتيجة البحث:

إن الخطر كل الخطر في التقليد الأعمى،و النسج على منوال الآخرين.فلكل شاعر أصالته و قدرته الذاتية،و لكل مبدع مواهبه التي تحمله إلى عالم جديد من التجارب الشعرية الحديثة،و ليس كل من يقلد الآخرين أو يحاول تدبيج المقالات في أنواع الشعر و مناهجه و طرقه،و يرسم الأساليب المختلفة لنظمه يمكن أن يصبح شاعراً،فالشاعر الحق هو الذي يرسم بشعره طريق الابداع و هو الذي يحدد الأطر التي يمكن للنقاد أن يبيّنوا من خلالها مدى التحديث و مدي التوريث.و حينئذ سيكون صوتاً مجلمجلاً لمجتمعه و انسانيته.و يكون له التأثير القوي على مسار الأحداث في هذا المجتمع.

و إذا كان البعض اليزالون يتسلقون على حبال الغرب و نقل نظرياتهم و آرائهم و مدارسهم في الشعر،ليرسموا للشعراء العرب طريقاً جديدة لاتتعلق ببيئتهم و حياتهم و معاناة شعوبهم،فهم واهمون و في الضلال هم سائرون.

المراجع و المصادر

١-أبوسعيد،أحمد؛**الشعر و الشعراء في العراق**،د.ط، بيروت،مكتبةصادر،١٩٢٨م.

٢-البستاني،بطرس؛**أدباءالعرب في الندلس و عصر الانبعاث**،ط٣،بيروت،دارالكتاب،١٩٩٢م.

٣-حسن الزيات،أحمد؛**تاريخ الأدب العربي**،ط١٤،القاهرة مكتبة النجلد المصرية١٩٩١م.

٤-الخوري،الرئيف؛**الدراسة الأدبية**، ط١٠،لبنان،١٩٤٥م.

٥-الركابي،جودت؛**في الأدب الأندلسي**،ط١٠،دمشق،١٩٥٧م.

٦-السحرتي،مصطفى عبداللطيف؛**الشعر المعاصر على السعر الحديث**، د.ط، ١٩٤٨م.

٧-شوقي ضيف؛**دراسات في الشعر المعاصر**، ط١٠،القاهرة،مكتبة الخانجي،١٩٩١م.

٨-الماغوط،محمد؛**الآثار الكاملة**،ط٢،بيروت١٩٩٨م.

٩-مجلةالآداب، ،١٩٥٨.

١٠-محمد كرد،أبوالقاسم؛**كفاح الشالي**،ط١٠، بيروت،دارالشرق الجديد،١٩٥٤م.

١١-**نازک الملائكة،ديوان شظايا و رماد**، ط١،دارالعلم، ١٩٤٩م.

١٢-النويهي،محمد؛**قضية الشعر الجديد**،ط٢، بيروت، دارالكتاب،د.ت.